حتى لا يبدو نافراً منها.

ولما فَرَدَ ذراعيْه عن آخرهما ليضمّها إليه، وجد أن جسمها لانهائي، ولا طاقة له باحتضانه. مال رأسه الى صدرها ليكتّف جهدَه المهدور، فلم يحتمل صدغُه الأشواكَ المبْرعة. أطلق يديه في جسمها تبحثان عن نعومة البدن، فصدتهما بخشونة ذكورية. ولما أفاق من هذا عاد لينظر إليها، وكان – القمر – قد أطل عليهما مرة أخرى، ودنا حتى صار سقفاً للمكان.

رأى أنه يحتضن الفراغ، وما كاد يعود بظهره حتى رأى الجسد الذي وثب الى الماء الساخن. ظلّ فترة يقبق ويصنع رغاويَ فوارةً على وجه الماء، ثم انطفأت الفقاقيعُ، وعاد كل شيءٍ إلى سكون البداية.

القاهـرة

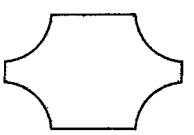

الزَّيْتونُ لِلْمَوْتَى

درصاف نويرة

إلَى إيكَارُوس المَغْرِبِيّ، سَيَهَبُكَ الزَّيْتُونُ غَزَالَه

آخرَ مَرَّةٍ..! آخر مرّةٍ..... كانَ العَرَقُ يطلعُ مثلَ أعْشَابِ غابةِ الزّيتون، متناثراً، مُتَقَطِّعاً، ميّتَ الرّائحةِ، تَافِهاً، مُتْمُسْكِناً..

وَجهُهُ الأخضرُ الآنَ مرفوعٌ فوقَ، وفوقَ البابِ الحديديِّ الذّي يُخْفي الطّرقاتِ وفوقَ الجُدْرَانِ المُعَرْوَرَقَةِ، وفوقَ القَمر، وفوقَ الظُّلْمةِ، وفوقَ رائحةِ الزَّيْتُونِ يُعَاشِرُ بعضَهُ لَيْلاً.

كَتَبَ فوقَ البابِ الحرفَ الأوّلَ من اسمهِ.. «هذاكيْ يرتَعَ في ذهْنِ الآتينَ تاريخي أنا». وابتَسَمَ، وصفّر، وتوقّفَ نَبضُهُ لحظةً ليُتابع نجماً.. وخراباً خارج هذا الباب العالي.

تقلّصَتْ قامتُهُ مجدّداً.. يجبُ أن يَخرج كَرَجُلٍ مَلِيءٍ بالكرامةِ، مليءٍ بالاعتزازِ، مليءٍ بالنّخوة؛ وأن تكونَ قامتُهُ متماسكةً كَوَرْدَةٍ عتيدةٍ، كامرأةٍ غامضةٍ لا تشي بتجربةٍ، ولا تشي بتعب، ولا بالحزن العميق.

يا عزيزتي الدّنيا، عندمَا أسقطُ فوقكِ لن تُقَاوِمي، وحينَ أقلبك لا يمكن البتّة أن تكوني أكثر من ممرّ واحدٍ.

تمتزج في أنفي رائحةٌ منغلقةٌ بالقَرفِ الذّي عانيتُهُ هُناكَ، تمتزجُ سويّةً رائحةُ الزّعْتَرِ والخُزَامَى والزّيتِ المتدفّقِ من الحبّاتِ السّوداء المنتفخة والطريّة حينَ تسحقُهَا أصابعُنَا، كنّا نُحبّ أن نُلامسها بحنوٍّ، أن نتشهّى طعَم الزّيتِ الحامضِ يحرقُ جنباتِ ألسنتنا الجافّة، ونموتَ.

.....

لكنّكَ لم تتعلّمِ المَعْنَى، مَعْنَى الحُنُوّ، كُنْتَ جلَفاً دائماً، تظلُّ جلفاً، لستَ فلاحاً مثْلَ أبيكَ، لا فَخْرَ لكَ، كانَ يُحبُّ الأرضَ وما يدبُّ على الأرض، كان يعاملُها بحبّ ويقدّرُ أنوثتها، ويطلب لها الماءَ، ويصلّي، ويتمسّحُ بصدرها، ويأوي نسلها؛ وكان وقت الحرثِ يشعُرُ أنّ نخوتَهُ ورجولَتَهُ تتدفّقان، وكان يظلّ طيلة أيام متتالية مزهوّاً ومُطَارَداً برغبةٍ حانيةٍ للعطاءِ.. دائمةٍ. وكانت أمّكَ تبتسمُ طويلاً، كانت تحبُّ الأرض ولا تغارُ، كانت تعلم أنّ الحياةِ الكريمة تأتي من هناك وأنّ زوجها ليس سِوَى راعي تُربتها وعطائها، وكانت تعلم أنّ الأرض هي الحياة، حياتنا جميعاً.

«لكنّ الحياة الكريمة تبدأُ من هُنا، من داخلها، من قناعتها المحفة حدّ الاستسلام الطيّب للبؤس، من اقتناعها بأنّ الأرضَ هي التي تمنحُ سعادةَ الحياة، من اقتناعها أيضاً بأنّ من لا يذوق الأرض لا يمكن أن يعرف طعم السّعادة.. لكن كلّ شيء كان يأتي من داخلها هي.. وأنا لم أستطع امتلاك هاته القناعةِ وامتلاك هاته السّعادة..»

لَسْتَ ابن أُمّكَ إذنْ.. ولست ابن أبيكَ.. ولستَ سوى لحمةٍ أسقطها فُجُورُ الكون كلّه.. لستَ سوى خُطوة عكرة في كلّ هذه المدينة.

كيف يمكن أن تكون طيّباً مع الدنيا!؟

.. والقسوةُ في قسماتك، وفي عروق يدكَ وذِراعكَ، وفي اهتياجك، وفي الباب الكبير، وفي وقاحتك قسوةٌ، وفي حبّكَ قسوةٌ، وفي الرّوح المصبوغة بالهمّ وبالماضي الكسيح قسوةٌ.

.. والدنيا كالأرض البور الفارغة، تطلقُ صوتكَ فيدخل في التّيهِ، وتطلِقُ عينكَ فتسقط في الإسفلت الذّائب، وتطلقُ رغبتك فتصطدمُ بسماءٍ كلَوْحٍ من النّحَاسِ وتدوخ، تطلقُ أحلامكَ فتضحكُ عليكَ بعد مسافة، تمدُّ لسانها، تبصقُ، تتعرّى، تَفْسُقُ، تسبُكَ، «مشْ راجلْ»،

تضحكُ أيضاً وتفرُّ.

(الدُّنْيَا!.. الدُّنْيَا كِيفِ العَسْكرِي وَقْتِ الحَرْبْ، مَا تَرْحَمْشْ، وعليكْ تهرب وتعيشْ هَارِبْ، وَيَا وِيلِكْ! نْهَارِتْجي بِين يْدِيهَا.. مَا تَرْحَمْشْ! مَا تَرْحَمْشْ!).

... تُطلقُ الرّصاص ولا ترى دمكَ.

الهاربُونَ مثلَ حبّاتِ شجرة الزّيتون الواحدةِ، لا يُعَدُّونَ. والذّين لا يهربون يتوهّمون أنّهم في مأمنٍ مِنْ غدر الدّنيا. والذين في مأمن من الدّنيا طُوبَى لهم... ولو بوهم قصير.

(أما أنتِ آش عَنْدْك!؟ تكلّم... قُولْ آش تملك!؟ قراية، دْرايَة، فْلُوسْ، إسْم وعائلة!؟ حتّى شيء.. شويّة الشّعْر اللّي عَنْدِكْ، أوْرَاقْ أوْرَاقْ، بيعْهُمْ للقَلايِبِي، وارتاحْ مِنْ تُهْمَةْ.. كِيفْ الكَلْبْ.. سَاعَاتْ مَا تلْقَى كَانِ الزّيتُونْ، تَلَقّطْ بَاشْ تاكِلْ.. وَوَقْتَ اللّي يَفَرّجْهَا رَبّكْ، — مَا تَلْحَقْ كَانْ البِيرَةْ الفَاسِدَةْ..).

البلادُ تضيقُ أحياناً، تضيقُ بكَ، تصبحُ أنت الحمل الشقيّ في رحمها المكتظ.

أما الأقمار التّي يتحدثون عنها في أسفل المقاهي الرّخيصةِ، فلا تراها، ترى فقط دائرةً بعيدةَ الضّوءِ، وكأنّها تنزعجُ أن تمنحَ نورها لأمثالكَ، وأحياناً ترَى بعضها أو جزءَهَا، وقد يحدُثُ أن تغيبَ!

وخلفكَ الخرابُ تتركُهُ، ووراء البابِ الكبيرِ خرابٌ آخر، وقد أَمِلْتَ في شيءٍ قليل يعوّضُكَ. تزدادُ الخُضْرَةُ، تتسرّبُ إلى كامل وَجْهِكَ، كالماءِ، كالموتِ، الجوعُ صعبٌ، الوحدةُ صعبةٌ، الاجتياحُ صعبٌ، التوحّشُ صعبٌ، الحياةُ هذه صعبةٌ.

ولكنّ الموتَ أيضاً صعبٌ.

يتقطّعُ، يظهرُ ثم يذوبُ، يَعِدُكَ ويُخلِفُ، الموتُ عَلَى صخرةٍ، الموتُ وفي فمكَ فمُ زجاجةٍ، الموتُ متعلّقاً ببابِ أحد الأسوارِ التّي تحتفظُ بخرابٍ آخر.. الموتُ ورأسكَ في دائرةِ ضوءٍ، مشنُوقاً بالأحلام.. لكن أنت تهربُ.. لا بدّ من أن تشبَعَ ثمّ تموتَ، لا بدّ من أن تحيَا، ثمّ ليكُنْ طوفان الدّم، لا بدّ من الموتِ بكرامةٍ إن كنتَ لم تحيا في كرامةٍ.. تهربُ ويهربُ الموتُ، حياتكَ تطولُ، وتمتدُّ، وتتمطّطُ، وتَتَلَوّى، وتتسكّعُ، وتتعرّجُ، وترتسمُ كالطرقاتِ. الطرقاتُ تبدأُ من هُنَا، من عتباتِ بيوتِ حارةِ القِصْدِيرِ. عتباتُ هذه المدينةِ الواسعةِ هي عتباتُ الفقر والجوع والعُرْيِ، والعُرْيُ ليسَ عيباً، لكن العيبَ هو أن تحبَّ، أن تحبَّ وأنتَ جائعٌ. أن تندلقَ تحت جدار فاحمٍ والأنينُ يختصركَ ليسَ أمراً شاذاً وممنوعاً، هنا، الممنوعُ أن تكتبَ بأظافركَ فوق الجدار.

«مِتُّ في هَذِهِ المدينةِ من الجوع والبردِ في إحدَى ليالي أُكْتُوبَرَ ونُزُلُ في الهَنَاء مختنقٌ بالدّفءِ وبالرّقص وبالحبِ».

وممنوعٌ أيضاً أن توقّعَ باسم النّاس.

عتباتُ الحَاجَةِ هي العتباتُ الحقيقيّةُ للمدينةِ، العتباتُ التّي تبدأُ منها الطُّرقاتُ، عتباتُ الحَاجَةِ للحبّ كما للخُبْزِ..

وآخر شيءٍ يمكنُ أن تأتيهِ قبلَ موتك تَقبيلُ شَجَرِ الزّيْتُونِ، تَقْبِيلُهُ وَجْهاً وَقَفاً، ومن الأسْفَلِ حتّى الأعلى..، حتّى فَوْقَ، فَوْق.. فوحدها حبات الزيتون المتعبةِ كالدّنيا، والسّوداءِ كالدّنيا، الحبّاتُ التي تعكسُ قشرتُهَا الملسَاءُ وجهكَ الحقيقيّ الأخضرَ، الحبّاتُ التّي تَلِدُ غَزَالاً فِضيًّا، وحدها التّي تجعلُ ريقكَ طيّباً في فم الموتِ، وحدها التّي ستجعلُ موتكَ سَهْلاً..

من حبّاتِ الزّيتُونِ يبدأُ الموت السّهلُ، من الأرضِ يبدأُ الموتُ، يبقى أنّك لن تتأسّف لفراقها.. وهذا أفضل!.

«شكراً —إذن— للزيتونِ لأنّه سيجعلُني أسافرُ بكرامةٍ، ورغم أنّهُ لم يكن قادراً يُوْماً على منحِي البقاءَ بكرامةٍ، فإنّهُ من واجبِي أن أعترفَ، في الزّيتونُ غزَالةٌ لمن يُرِيدُ المَوْتَ؛ الزيتونُ رغبةُ المُوْتَى؛ الزّيتُونُ لِلْمَوْتَى؛ الزّيتُونُ لِلْفَم المُرّ».

تونس